

الفصل الخامس

- التجار .
- عناصر التجار :
- (العرب - البربر - الأندلسيون - أهل النمة)
- تنظيمات التجار :
- (جملة - بالمقطع ، بالمفرق)
- علاقة التجار بالدولة .

التجار في المغرب الأقصى

كانت التجارة من أهم المهن التي عمل بها التجار في المغرب الأقصى ، فعن طريقهم يتم البيع والشراء ، ويجد السكان ما يحتاجون إليه عند هؤلاء التجار^(١). واعتبر أبو الفضل الدمشقي أن التجارة أفضل المعاش حيث قال : " التجارة إذا ميزت من جميع المعاش كلها وجدتها أفضل وأسعد للناس في الدنيا والتاجر موسع عليه وله مروءة ، ومن نبيل التاجر أن يكون في ملكه ألوف كثيرة ولا يضره أن يكون ثوبه مقارباً"^(٢) .

وكانت طبقة التجار المكونة من العرب أو البربر أو الأندلسيين هي الطبقة الوسطى في المغرب الأقصى^(٣) .

• عناصر التجار :

كان سكان المغرب الأقصى يمثلون عناصر متعددة السكان^(٤) فقد كان العنصر الغالب هم البربر على باقي عناصر السكان ، ثم يأتي بعد ذلك العنصر العربي ، حيث يمثل العنصر الثاني في بناء المجتمع المغربي في ذلك العصر . وإلى جانب البربر والعرب وجدت أقليات من الأندلسيين والسودانيين والغز واليهود^(٥) والمهاجرين والنصارى الذين شكلوا عنصراً من عناصر سكان المغرب الأقصى . ويرجع أصل كثير من الأندلسيين وأهل الذمة إلى أصول بربرية أو عربية ، إلا أن كلا من الأندلسيين وأهل الذمة كانت لهم سماتهم المميزة لهم ، الأمر الذي يجعل كلا منهم يشكل عنصراً مستقلاً في المجتمع المغربي^(٦) .

(١) حسن على حسن : الحضارة الإسلامية من ٣٤٣ - ٣٤٦

(٢) أبو الفضل بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق البشري الشوربجي ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الإسكندرية ١٩٧٧م ص ٦٩

(٣) روجيه لوطورنو : فاس في بني مرين ص ٤٩ ، ١٦٠

(٤) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ٤٩

(٥) عبد السلام بن سوده: بيوتات فاس في القديم والحديث، مجلة البحث العلمي، العدد (٢٢) يناير - أبريل ١٩٧٤ ص ١١١

(٦) محمد عادل عبد العزيز : الحياة الثقافية والاجتماعية في دولة بني مرين ٦٦٨ - ٨٦٩هـ / ١٢٦٩ - ١٤٦٥م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ١٧٠

- البربر :

يكون المغاربة (البربر) الغالبية العظمى من عناصر السكان التي استوطنت بلاد المغرب منذ القدم ، وأول من أطلق عليهم هذه التسمية Barbari هم الرومان^(١) ويقسم النسابون البربر إلى قسمين كبيرين هما (البتر والبرانس)^(٢) .

ويقوم النظام الاجتماعي عند البربر على أسس قبلية محضة ، فالقبيلة هي عماد النظام سواء كانت تعيش على الريادة (الرعي)^(٣) أو الغزو ، أو مستقرة تتكسب من الفلاحة وتربية الأغنام ، وتتكون القبيلة البربرية من عشائر وأسر ، والولاء الأول للقبيلة، فالعصبية عند البربر تقوى كلما ضاق المجتمع، وتضعف كلما اتسع ، ويرأس الأب أو الزوج الأسرة وله السلطان المطلق عليها^(٤) .

وكان للبربر من البتر والبرانس في المغرب الأقصى دور ، ففي عصر المرابطين كان فرع صنهاجة من البرانس أصل دولة المرابطين^(٥) وعندما آل الحكم

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٢٨ . وقد تضاربت روايات المؤرخين حول النسب الأصلي للبربر ومع تضارب هذه الروايات يمكننا أن نقول إن جيل البربر كغيره من الأجيال التي عبرت الأرض وانتشرت في أرجائها طلباً للرزق ، وأنها اتخذت المغرب موطناً لها . وتكاثرت هذه الجماعات حتى أصبحت أعداداً هائلة ، متخذة شكل القبائل . (حسن على حسن : الحياة الإدارية والاجتماعية في المغرب ص ٣٢٨)

(٢) يغلب على شعوب "البرانس" ميلهم للاستقرار في القرى الساحلية والواقعة في التلال والجبلية ، والنواحي الخصيبة المحيطة بجبال الأوراس، وفي الجهات الجنوبية والوسطى من إقليم الجزائر، والتوغل إلى مراکش ، والجزء الشرقي من جبال أطلس ، حتى أنهم وصلوا إلى مصب نهر السنغال ومنحني نهر النيجر . أما شعوب " البتر" فينتمون إلى أربع قبائل كبرى رئيسية هي (أداسة ، ونفوسة وضرية ، ونبلولوا الأكبر أو لواتة) وهذه القبائل الأربع الرئيسية تنفرع إلى الكثير من الفروع . ويغلب على شعوب البتر طابع البداوة ، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية . فهم ينزلون بسلسلة الوديان الصحراوية والرعيه التي تمتد من طرابلس إلى تازا، وينتشرون في إقليم السوس الأقصى ، كما توجد بعض بطونهم بجبل نفوسة وإقليم الجريد ، أما قبيلة " زناته" فكانت تسكن المنطقة الممتدة ما بين غدامس والسوس الأقصى ، ومن الملاحظ أن أغلب الزناتيين يقيمون في المناطق الداخلية في المغرب الأوسط . (ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٨٩ ، ج ٦ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ١ ، ص ١- ٣١ ، مجهول : الاستيصار ص ٢١٣-٢١٤)

(٣) الريادة : من مادة الرائد وهي حرفة الأعراب الذين يختلفون بمواشيهم إلى المراعى مقبلين ومدبرين . (المعجم الوسيط)

(٤) عبد الوهاب منصور : قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٨م ، ج ١ ص ٢٨٠

(٥) إسماعيل بن الأحمر : بيوئات فاس الكبرى ، الرباط ١٩٧٢م ص ٢٦

للموحدين احتلت قبائل المصامدة في عصر الموحدين مكاناً مرموقاً بين القبائل الأخرى . ولما سقطت دولة الموحدين وقامت الدولة المرينية احتلت قبائل زناته التي ينتسب إليها بنو مرين مركز الصدارة والزعامة بين باقي القبائل البربرية^(١) .

- العرب :

العرب هم العنصر الثاني من عناصر السكان في المغرب الأقصى^(٢) وتآلف العنصر العربي من العرب الفاتحين ، بالإضافة إلى القبائل العربية إلى جاءت في منتصف القرن الخامس الهجري^(٣) فمع دخول العرب إلى مدن المغرب الأقصى ، كان لهم تأثير حضاري كبير ، فقد تصاهر أهل فاس مع أهل القيروان^(٤) ومن بطون قبائل العرب قبائل " المعقل"^(٥) فيذكر ابن خلدون : " إن عرب الخلط وسفيان وبنسي جابر وهم من بطون جشم"^(٦) انتهت رئاستهم إلى قبيلة سفيان سائر أيام الموحدين ،

(١) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٢٢-٢٣ ، النميري : فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، ص ٣٩٥

(٢) فقد وفدت وفود العرب من بلاد افريقية والقيروان والأندلس والعراق ، من القيسية والأزد ، ومدلج وبنو يحصب وغيرهم ، عند بناء مدينة فاس على يد إدريس الثاني فأسكنهم بالمدينة وجعلهم بطانته دون البربر . (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٥-٤٦)

(٣) هي الهجرات العربية التي عرفت في التاريخ المغربي " بالغزو الهلالي" وكانت الهجرة من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى مستمرة خلال قرن من الزمن ، منذ خراب القيروان سنة (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) وحتى الفتح الموحدى للبلاد الشرقية . (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣-٢١) ويذكر عبد الواحد المراكشي ذلك بقوله " كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمرها بعثت العرب فيها فر منها أهلها ، ونزل أكثرهم مدينة فاس" . (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٤٤٣ ، عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص ٩٣)

(٤) عز الدين احمد موسى : نفس المرجع ص ٧٥

(٥) بنو معقل : أول دخول المغرب الأقصى أعدادا قليلة ثم تكاثروا بعد انضمام عدد من القبائل إليهم من غير نسبهم ، فيهم من بني فزاره بن ذبيان وفيهم من بني أشجع بن زيد بن غطفان ومنهم من الصهانجة والصباح بن الأخضر والعمور بن الاتيج وفيهم بطون من هلال وسليم، وكانوا أول أمرهم يدفعون لزناته قبل سيطرتهم على المغرب ضريبة يسمونها " جمل الرحيل" . (ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٥٨-٥٩ ، الناصري : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٧-١٧٩)

(٦) قبائل جشم : قبائل كثيرة لا ينحدرون من نسب واحد وإنما غلبت عليهم تلك التسمية ، ومن أبرزها المقدم والعاصم والاتيج وقررة ، وهؤلاء من بني هلال ، بينما كان الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة وكان قبائل الخلط على عهد الخليفة الرشيد الموحدى تتاهز الاثنا عشر ألفا انحازوا تماما إلى المرينيين بعد معركة أم الرجلين بين المرتضى والمرينيين سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م (ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ص ٢٥-٢٨ ، ٣٠ ، ابن الأحمر : روضة الترسين ص ٢٣ ، الناصري : الاستقصا ، ج ٢ ص ١٧٠-١٧٦)

وعندما دب الوهن في جسد الدولة الموحدية كانت لهذه الجموع الغلبة على مقاليد الأمور في الدولة ، وحين استولى بنو مرين على فاس لم تكن فيها حامية أشد منهم بأساً " وكانت هناك وقائع وحروب مع قبائل رياح (١) .

ويذكر ابن صاحب الصلاة: " أن بأحواز مدينة فاس من عرب بني الرياح وبني جشم وبني عدى وقبائلهم ما يضيق القضاء على عدد الذباب وعدد الحصى " (٢)

وكان للعرب أثرهم الواضح في مجريات الحياة العامة ، فقد بدأ واضحاً دورهم في الحياة الاقتصادية ، فعلى صعيد الثروة الحيوانية كانت عنايتهم المعروفة بتربية المواشي والأبقار والخيول قد انعكست على القبائل البربرية المستقرة بالبلاد فاشتهرت بعض الأصناف ، منها الخيول الفازازية (نسبة لقبيلة عربية من قبائل الهلالية) (٣) . وزيادة على ذلك فقد بدت مساهمتهم واضحة في مجال الزراعة (٤) فهم ادخلوا طرقاً جديدة في زراعة النخيل (٥) كما كان لهم دور واضح في حقل التجارة أولها في تأمين الطرق التجارية وحمايتها (٦) . وقد عمل العرب في العديد من الحرف منها : نسج الحرير وبيعه غير منسوج ، بيع العطور ، وسبك الشمع ، ونسج غزل الكتان ، وبيع لبن البقر لمعامل الأجبان ، وعمل البعض في بيع الفاكهة والخبز والخضار (٧) .

— الأندلسيون :

شكل الأندلسيون العنصر الثالث من عناصر سكان المغرب الأقصى ، ويطلق اسم " الأندلسيون " على أهل الأندلس باختلاف أصولهم سواء

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢-٣٦ الناصري : نفس المصدر ج ٢ ص ١٥١ ، ج ٣

ص ٣-٧ ، مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في المغرب ، ص ٢١٠

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة ص ١٤٤

(٣) لسان الدين ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط من كتاب أعمال الأعلام ،

تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ١٦٨ ،

مصطفى أبو ضيف : اثر القبائل العربية ص ٢٩٣-٢٩٥

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ص ٣٠ ، مصطفى أبو ضيف : نفس المرجع ص ٣٠٤

(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ١٢٠

(٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ص ٣٠ ، حسن على حسن : الغزو الهلالي للمغرب (أسبابه

وتنتائج) المجلة التاريخية المصرية ، مجلد (٢٤) ١٩٧٧م ص ١٣٩ ، مصطفى أبو ضيف :

مرجع سابق ص ٣٠٤

(٧) ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى ص ٢٣

عربية أو بربرية أو من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا فاندمج أحفادهم مع المسلمين^(١).

وقد استقر الأندلسيون في فاس منذ عهد الأدارسة^(٢) وكانت الهجرة إلى المغرب في كثير من الأحوال وسيلة من الوسائل التي اتبعتها الأندلسيون للخلاص من الأزمات الداخلية^(٣).

ثم إن المصالح الداخلية والخارجية للأندلس لعبت دوراً كبيراً في هجرة العناصر الإسبانية الإسلامية إلى المناطق الساحلية في المغرب الأقصى^(٤) فمنذ منتصف القرن السادس الهجري تدفقت الهجرات الأندلسية على المغرب نتيجة للكوارث التي ألمت بالمسلمين في الأندلس . خاصة بعد سقوط عدد غير قليل من المدن الأندلسية بيد الممالك الإسبانية وبوجه خاص في النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي^(٥).

(١) ويذكر عبد الواحد المراكشي : " إنه لما اضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه رحل منها من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس " (عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٤٤٣)

(٢) هاجر إلى فاس بعد موقعة الربرض في عهد الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م) ثمانية آلاف أسرة وسميت الأرض التي استقروا عليها بـ " عدوة الأندلسيين " (ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٣٢-٥١ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٥٠-١)

(٣) ج٠س كولان : الأندلس ، ترجمة إبراهيم خورشيد وعبد الحميد بونس وحسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني (ط ١) بيروت ١٩٨٠م ص١٤٧

(٤) يذكر المقرئ نقلاً عن ابن غالب : " أن أهل الحواضر في الأندلس عندما انتقلوا إلى المغرب الأقصى مالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الضائع فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم وخملوا أعمالهم وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وافرغوا فيه من أنواع التجويد والخدمة ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم " (المقرئ : نفح الطيب ، ج ٣ ص ١٥٢)

(٥) فقد المسلمون في تلك الفترة مدناً مهمة مثل قرطبة سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م وبالنسبة سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م ودانية سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م وجيان سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٢م وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٧م وغير ذلك من مدن . (محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ج ٢ ص ٣١٣)

ومع زيادة التفكك في أسبانيا الإسلامية وسقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر ، أتضح أن هذه الأحداث هي بداية حركة التثنت الحقيقي للأندلسيين ، ويتضح هذا من خلال التراجم العديدة التي وردت لشخصيات من مختلف المدن الأندلسية . هاجرت إلى مدينة فاس بقصد الاستيطان . وبلغ عدد هذه الهجرات الاستيطانية قرابة الثمانية من مختلف المدن الأندلسية^(١) وإن كانت المصادر قد أشارت إلى أعلام المهاجرين ، فلا شك أن هناك أعداداً كثيرة هاجرت دون أن تذكرها المصادر .

وقد تقبل المجتمع المغربي وجود هؤلاء الأندلسيين كعنصر من عناصر السكان ، وقد انقسموا إلى فريقين هما :

الفريق الأول : مجموعة من العسكريين ، يرجع وجودهم في صفوف الجيوش المغربية إلى أيام المرابطين ، فقد كانوا يمثلون عنصراً هاماً في الجيش المرابط^(٢) كما ضم الجيش الموحدى بعض الأندلسيين^(٣) .

الفريق الثاني : أغلبهم من الفقهاء والعلماء والتجار ، أو ممن تركوا ديارهم نتيجة للضغط المسيحي على بلادهم فيما بعد^(٤) .

وقد كان لهم دور بارز في إثراء الحياة الثقافية في المغرب الأقصى . كذلك

(١) ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي بن علي الصدفى ، تحقيق كوديرا ، مطبعة روخس ١٨٨٥م ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم (ابن الزبير) : صلة الصلة البشكوالية ، صححه وعلق عليه ليفي بروفنسال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، الرباط ، المطبعة الاقتصادية ١٩٣٧م ، ج ٧ ص ٤ ، ١٤ ، ١٥ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٥م ج ١ ، القسم الأول ص ٨٧ ، ٩١ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٦٧ ، ٥٥٢ ، ج ٥ القسم الأول ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ . المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ٣ أجزاء ، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا ، وإبراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠م ١٩٤٢م ، ج ٢ ص ٣٦١ .

(٢) مجهول : الحلل الموشية ص ٩١ ، محمد المنوني : نظم الدولة المدنية ص ٢١٥

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٧ ، الناصرى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٥٤

(٤) ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ١١

وجد الكثير من الفقهاء والعلماء الأندلسيين^(١) فنجد عناصر أندلسية اكتسحت الميدان ولعبت دوراً رئيسياً فيه نظراً لما كانت تتوفر عليه من مكانة سامية ومركز اجتماعي مهم .

وقد قام الأندلسيون بدور هام في الحياة الاقتصادية في المغرب الأقصى فقد انشأ الأندلسيون صناعة جديدة لصنع غطاء خاص للرأس في مدينة فاس حيث يسمى في فاس " الشاشية أو الطربوش " والتسمية منقولة من مكان الصنع الأصلي^(٢) .

وكذلك فإن تجار الأقمشة الصوفية في القيسارية بفاس كانوا من الأندلسيين وكان لتجار هذا المجال حيان مخصصين لهم ، وهذه الأقمشة أغلبها ترد من أوربا^(٣) . وقد نقل الأندلسيون للمغرب الاهتمام بتربية " دودة القز " حيث حرصوا على تربيتها لاستغلالها في إنتاج الحرير^(٤) . كما كان للأندلسيين دور هام في تعليم المغاربة دقة الصنعة في الخياطة وكان " محمد بن احمد بن طاهر الأنصاري الأشبيلي النحوي " المعروف بالأحذب بفاس ينتحل صنعة الخياطة وقد رأس أهل عصره وأخذ عنه الكثيرون^(٥) . كما كانت اغلب فنون التطريز والترقيم التي عرفتها المغرب من أصل أندلسي^(٦) .

وتعلم المغاربة فن تفسير الكتب على أيدي الأندلسيين أمثال " أبو الحسن بن محمد القيسي القرطبي " و " ابن الأشبيلي " الذي استوطن فاس فعرف بالفاسي^(٧) .

وقد بلغت معامل إنتاج الورق في مدينة فاس وحدها أربعمئة معمل^(٨) كما شاع في المغرب الخط الأندلسي^(٩) . وعندما هاجر عدد كبير من اليهود الأندلسيين إلى

(١) ابن طفيل ولد في إحدى القرى الأندلسية وتقلد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة ، وحاكم ولاية طنجة ، وكان طبيبا لأحد خلفاء الموحدين وهو أبو يعقوب يوسف ، ومن أهم مؤلفاته " حي بن يقظان " وتوفى في مراكش ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، كذلك ابن رشد ارتفع شأنه في خلافة أبي يوسف يعقوب المنصور . (عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ١٣٣ - ١٣٦ ، ١٧٤ - ١٧٥)

(٢) وقد عرف هذا الغطاء في أوربا باسم " الفز " نسبة إلى مدينة فاس حيث كان يصنع . (روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ١٣٥)

(٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ج ١ ص ٢٤١

(٤) عبد العزيز عبد الله : مظاهر الحضارة بالمغرب ج ٢ ص ١٠٠

(٥) عبد العزيز عبد الله : نفس المرجع ص ١٠٣

(٦) عبد العزيز عبد الله : نفس المرجع ص ٩٥

(٧) محمد المنوني : العلوم والأدب والفنون على عهد الموحدين ص ٢٦٧

(٨) محمد المنوني : المرجع السابق ص ٢٥٦

(٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٧

المغرب ، اهتموا نفس المهنة التي كانوا يمارسونها في الاندلس مثل النجارة والبناء^(١).

– السودانيون :

كان السودانيون من العناصر السكانية التي سكنت المغرب الأقصى في مدن مختلفة ، وأشغل كثير منهم بالتجارة ، وقد كان يتم جلبهم من بلاد السودان ، وكانت أعدادهم بفاس كبيرة ، حيث استخدم المرابطون الرقيق السود في حيوشهم وتنظيماتهم العسكرية حتى صاروا يكونون فرقة كاملة في الجيش^(٢) . وكان من الطبيعي أن تتزايد أعدادهم في المدن المغربية ، ويتضح ذلك في العدد الذي فرض على أهل فاس أن يقدموه وهو " ثلاثمائة غلام " من هؤلاء السودانيين بنفقاتهم وسلاحهم في أحد حملات " يوسف بن تاشفين " على الاندلس^(٣) .

– (أهل الذمة)...اليهود :

عاش اليهود في المغرب قرونا عدة ، قبل أن يفتحها المسلمون ، وقد خضعوا خلال هذه المدة الطويلة للعديد من الأمم والأقوام الذين تعاقبوا على حكمها.

فقد اعتنق فريق من السكان الديانة اليهودية ، ومن المحتمل أن يكونوا هؤلاء من " البربر " الذين اعتنقوا اليهودية في عهود قديمة واستطاعوا المحافظة على معتقدتهم^(٤) وقد علل ابن خلدون ذلك بقوله " ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، كما كان جراءة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح ، وكما كانت نفوسه من برابر افريقية وفندلاوقة ومديونة وبهلولة وغيانة ، وبنو بازاز من برابرة المغرب الأقصى"^(٥) . وقد كرههم أهل هذه البلاد وحكامها ، وضيقوا عليهم ، وذلك رداً على كره اليهود لهم واستغلالهم عليهم ، واستهزائهم بمعتقداتهم ، واستغلال كسب

(١) مارمول: إفريقيا ج ٢ ص ١٥٥ ، حاييم زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ص ١٥٤

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجبالي : تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٢ ج ١
إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٢

(٣) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ، حسن على حسن : الحضارة الإسلامية
ص ٣٢٢ ، ٣٢٣

(٤) عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب (رسالة ماجستير) ص ٢٤

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٧

أموالهم بالربا ، وبالطرق غير المشروعة . وعندما فتح المسلمون المغرب ، رفعوا الاضطهاد عن اليهود ، وتعاملوا معهم وفق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة ، فسمحوا لهم بالبقاء على دينهم ، وممارسة شعائرتهم وتركوا لهم حرية السكن بين المسلمين ، أو في أحياء خاصة بهم عرفت في الحقب اللاحقة بـ " الملاح " (١) وأتاحوا لهم مزاولة ما شاعوا من أنواع النشاط الاقتصادي ، وحفظوا أرواحهم وأموالهم وحقوقهم ، فشهدوا عدلاً وتسامحاً وحرية لم يعرفوها من قبل .

ولقد تمركز الكثير من اليهود في موضع فاس قبل بناء المدينة على يد إدريس الثاني ١٩٢ - ١٩٣هـ / ٨٠٧ - ٨٠٨م بين قبائل زناتة وزواغة وبني يزغت (٢) إلى جانب هجرة الكثير من يهود الضاحية الجنوبية بقرطبة أيام إدريس الثاني بعد إبعادهم عنها نتيجة ثورة ٣٠٢هـ / ٨١٨م (٣) فيذكرها البكري أنها : " أكثر بلاد المغرب يهوداً ، ويختلفون منها إلى جميع الآفاق " (٤) وقد حظيت فاس باهتمام بالغ من يهود الشرق وخاصة من العراق (٥) . كما كانت قبلة اليهود في المغرب الأقصى والأندلس . ويعد اليهود من الجاليات الهامة التي عاشت في المغرب الأقصى متخذينه وطناً لهم . فقد شكل اليهود طبقة كبيرة من طبقات المجتمع ، وقد أشارت العديد من المصادر إلى وجود تجمعات كبيرة منهم بفاس (٦) ومما يدل على ذلك كثرتهم وامتلاكهم الأملاك والمتاجر والديار بالمدينة حيث يقع بعض هذه الأملاك والديار بالقرب من جامع القرويين (٧) ولعلها كانت تتمركز في الحي المجاور لباب الجيسة (٨) وكذلك في مدينة درعة يوجد بها تجار يهود (٩) وكان في مدينة مكناسة يهود (١٠) وكذلك

(١) العمري : مسالك الأبصار ص ١١٤ ، عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، مطبعة فضالة المحمدية ، ١٩٨٨م ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، ألفريد بل : الفرق الإسلامية ص ٣٢٧ .

(٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٣١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣ ، الناصري : الاستقصا ج ١ ص ١٥٠ ، ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٤٤

(٣) عبد الرحمن بشير : اليهود في المغرب العربي ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، القاهرة ٢٠٠١م ص ٤٩

(٤) البكري : المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب ص ١١٥

(٥) عبد الرحمن بشير : مرجع سابق ص ٤٩ .

(٦) البكري : مصدر سابق ص ١١٥ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٢

(٧) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٥٩

(٨) الناصري : الاستقصا ج ٢ ص ٣٩ ، روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ١١١٠

(٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٥١/٢

(١٠) البيدق : أخبار المهدي ص ١٢٤

في مدينة مراكش^(١) وفي مدينة أغمات^(٢) وسجلماسة يوجد أيضا فيها يهود^(٣) وفي أغلب مدن المغرب الأقصى يوجد فيها يهود^(٤).

وفي عهد المرابطين اتخذوا موقفاً متشدداً نحو اليهود فيذكر الإدريسي أن اليهود: " لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي ولا تدخلها إلا نهاراً وتتصرف منها عشية ، وليس دخولهم في النهار إلا لأمر له وخدم تختص به ، ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ..."^(٥)

أما في عهد الموحيدين فيذكر المراكشي موضحاً مدى تشدد الموحيدين نحو أهل الذمة في المغرب فيقول : " ولم تزل تتعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة"^(٦) فقد مر أهل الذمة (اليهود والنصارى) بفترات مختلفة في بداية دولة الموحيدين في عهد عبد المؤمن بن علي ثم في فترة خلفائه من بعده .

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٣١

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٠ ، مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية ص ١٤ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٩

(٣) البكري: نفس المصدر ص ١٤٨-١٤٩ ، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ٢٠٢

(٤) حاييم زعفراني : ألف سنة من حياة اليهود في المغرب ص ١٥٦

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٦٦ ، عز الدين احمد موسى : مرجع سابق ص ١١٣

(٦) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٨٣ ، كمال السيد أبو مصطفى : جوانب من الحياة

الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للرنشريسي ، مركز الاسكندرية للكتاب ، ١٩٦٦م ، ص ٣٨ . أما في عهد المرينيين وفي بداية حكمهم وقف سلاطينهم ضد استخدام اليهود في الجهاز الإداري ، وابلغ دليل على ذلك استتكار وزير السلطان " أبي يعقوب يوسف بن يعقوب " في القاهرة وكان يجلس في حضرة السلطان " بييرس الجاشنكيز " فحضر إلى المجلس احد كتاب النصارى ، فقام إليه الوزير المغربي على اعتقاد منه بأنه مسلم فلما ظهر له انه نصراني قامت قيامته ، وقام السلطان يتحدث معه في أمر النصارى واليهود وإخباره أنهم بالمغرب في غاية الذل والهوان . (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، نشر دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ١٣٣ ، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٣٣٧) ولكن الوضع اختلف وثبت غير ما قاله الوزير عندما توطدت أركان الدولة في عهد السلطان أبو يوسف المريني سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م ... وقد استخدم السلطان " خليفة بن حيون بن زمامة " اليهودي حاجياً له ، وأصبح لليهود وضع داخل الدولة. (ابن الأحمر: روضة النسرين ص ٣١، النفحة النسرينية واللمحة المرينية ص ٣٩)

فقد أعلن عبد المؤمن بن علي بأن دولته على ملة الإسلام وخير أهل الذمة وقال:
" إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام ، وأنا مخيركم بين ثلاث ،
إما أن تسلموا ، وإما أن تلحقوا بدار الحرب ، وإما القتل فأسلمت طائفة ، ولحقت
أخرى بدار الحرب ، وخرّب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألغى الجزية ، وفعل ذلك
في جميع مدائنه " (١) وبذلك لم يدع مشركاً في بلاده ولا يهودياً ولا نصرانياً ، فجميع
رعيته مسلمين (٢) .

وقد حدد مدة مشروطه لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين ،
وعليه ما على المسلمين ، ومن بقى على رأس أهل ملته ، فإما أن يخرج قبل الأجل
الذي حدده ، وإما أن يكون بعد الأجل فيكون في حكم السلطان مستهلك النفس والمال ،
ولما استقر هذا الأمر خرج المخفون ، وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله وأظهر
الإسلام وآسر الكفر (٣) .

وقد اتخذ عبد المؤمن بن علي هذا الأمر مع أهل الذمة ، وذلك لخوفه من
دسائس وخيانات أهل الذمة ، وقد عايش ذلك بنفسه حيث خان جنود النصارى جيش
المرابطين ، وفتحوا أبواب مدينة مراکش ، وبذلك مكّنوا الموحدين من احتلال
المدينة (٤) .

ولن يكون هذا عذراً يلتبس لعبد المؤمن بن علي ، حيث أن هذا الموقف يعتبر
خروجاً على الدين الإسلامي حيث يأمرنا المولى عز وجل " لَأَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " (٥) .
فإن هذا الموقف من عبد المؤمن بن علي كان قاصراً عليه فإن ولاة الأمر من
المسلمين لا يسمح لهم بفرض الإسلام بالقوة (٦) .

(١) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط،
مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ ، ج ٢٠ ، ص ٣٧٠

(٢) الذهبي : نفس المصدر ص ٣٧١

(٣) جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ،
بتصحيحه محمد امين الخليلي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ هـ ، ص ٢٠٩

(٤) حسن علي حسن : الحياة الإدارية ص ٤١٩

(٥) البقرة : ٢٥٦

(٦) حسن علي حسن : نفس المرجع ص ٤١٩

وقد انتهى أمر خروج أهل الذمة بعد موت عبد المؤمن بن علي ، فقد تغير الوضع مع أهل الذمة مع خلفاء عبد المؤمن بن علي ، حيث سمح لخلفاء عبد المؤمن ابن علي لأهل الذمة الإقامة في دولتهم .

ففي عهد الخليفة يعقوب بن يوسف ثالث خلفاء الموحدين (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م) أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك بثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمائم كلونات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاخ هذا الزي في جميع يهود المغرب ، ولم يزلوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبد الله الناصر (٥٩٥ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م) وفي حكم الناصر استغاث به اليهود واستشفعوا لديه لأقالتهم من هذا الزي المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية حكم الموحدين (١) .

وقد خرج اليهود مع أهل مراكش لصلاة الاستسقاء ، حتى لم يبق في المدينة أحد ، لا نساء ولا أطفال ولا بهائم ولا اليهود والنصارى لكي ينزل الغيث في زمن المنصور (٢) .

ولقد عمل اليهود في التجارة في المغرب الأقصى ، لذلك اخذوا في توظيف مدخراتهم التي جمعوها من تجارة الذهب والصياغة والصرافة وغيرها إلى مبادلة النقد وتلقى المال من الملوك والأمراء لاستثماره في التجارة ، ثم إلى إقراض المال بالربا (٣) . ولذلك فإن اليهود لم يكونوا موضع حب الأهالي أو تقهتهم بل كانوا محطة شكوك الجميع (٤) .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٣ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ص ٢٠٥ ، محمد عبد الله عنان : مرجع سابق ص ٢٣٥

(٢) عباس بن إبراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ج ١ ص ٢٧٨

(٣) مارمول كرفجال : إفريقيا ج ٢ ص ٥٥ ، ول ديورانت : قصة الحضارة وعصر الإيمان ، ترجمة محمد بدران جزء ١٤ لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٧٥ ج ١٤ ص ٦١ ، موريس لومبارد : الإسلام في مجده الأول ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ، الجزائر ، ١٩٦٦ م ، ص ٣١٧ ، عبد الوهاب المسيري : الأيدلوجية الصهيونية ، دراسة حالة في علم الاجتماع ، المعرفة ج ١ عالم المعرفة عدد ٦٠ الكويت ١٩٨٢ ص ٢٢-٤١

(٤) مجهول : قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين ، مخطوط ورقه ٣ ، ٤ ، السيد سابق : فقه السنة ، ج ٣ ص ١٧٨

وتصدرت التجارة المهن التي عمل بها اليهود في فاس ، ولعل معظم هؤلاء من يهود الشتات الذين لم يعرفوا وطناً يجمعهم أو يأمنون إليه ، ومن ثم حرصوا على أن تكون أموالهم سائلة ، لتيسير التنقل بها وإذ ما اضطرتهم الظروف السياسية أو الاقتصادية^(١) ، مما أسفر عن تكوين سلسلة من التجمعات اليهودية تركزت على طرق التجارة الرئيسية ، فأصبحوا تجاراً بالضرورة^(٢) وقد حازوا خبرة كبيرة أدت إلى نجاحهم في هذه المهنة .

فقد لعب اليهود دوراً هاماً في الحياة التجارية في الدولة وخاصة داخل مدينة فاس . ولذلك فقد انصرف الكثير من اليهود إلى العمل بالتجارة على نطاق واسع ، فبلغ بعضهم وضعاً مالياً متميزاً فأصبح البعض منهم من كبار الأثرياء^(٣) .

كما لعب التجار اليهود دور الوسيط بين الجهات الأوروبية وداخل الأسواق المغربية وذلك لإتقانهم عدة لغات وخبرتهم في الشؤون المالية والتجارية^(٤) . وانتشر اليهود في أرجاء المغرب الأقصى خاصة في الأماكن ذات الموقع المتميز كالمدين التي تتحكم في مفارق الطرق البرية والموانئ .

وكان لليهود دور هام في الحياة الاقتصادية في المغرب الأقصى فكان منهم تجار البقالة ، والماشية ، والقصابون ، ولخبازون ، وأصحاب الفنادق ، وكانوا لا يشترون العقارات لكي يحتفظون بحرية استعمال أموالهم ، وكان ذلك من أسباب ثرائهم وقوتهم الاقتصادية وكان من أهم الأسواق التي اشتغل بها اليهود أسواق المواد الغذائية^(٥) وجرت العادة أن تكون أسواقها أمام أبواب المدن أو أسوارها أو أمام ضريح أحد الصالحين^(٦) .

(١) عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي ص ٨٦

(٢) حسن ظاظا والسيد محمد عاشور: اليهود ليسوا تجاراً بالنشأة ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ٢ ، عبد الرحمن بشير : نفس المرجع ص ٩٩

(٣) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ٥٤ ، ١١٣

(٤) الونشريسي : المعيار ج ٦ ص ١٥٧ ، عبد السلام الترومانيني : الرق ماضيه وحاضره ، عالم المعرفة ، عدد ٢٣ الكويت ١٩٧٩م ص ٨٧

(٥) وقد كانت هذه الأسواق منتشرة في جميع المدن والقرى التي بها أحياء يهودية ، حيث كانت تقام داخل المعابد أو داخل الحي . (مارمول كرفجال : إفريقيا ج ٢ ص ١٥ ، حاييم زعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ص ١٥٦)

(٦) عبد القادر زمامة : أزمة التجار في الأندلس ، مجلة المنهل عدد ٣٥ المغرب ١٩٨٥م ص ٣٣٣

أما الأسواق التي تخصصت في بيع الملابس والأقمشة والمنسوجات في فاس فكان لليهود دور هام فيها وخاصة أنه كان لهم أسواق خاصة داخل أسواق فاس منها " سوق الخياطين" (١) كذلك كان لليهود دور كبير في صناعة الحرير فكان الحرفيون اليهود يشتركون في هذه الصناعة (٢) وكانت الملابس التي تطرز بالخيط المذهب يحتكرها اليهود لدرجة أنهم أطلقوا على أرباب هذه المهنة اسم " الصقليين (نسبة الي صقلية) " (٣) . كما اشتهروا بالصناعات المعدنية وخاصة صناعة الذهب والفضة (٤) وكذلك فقد احتكر اليهود سوق الصاغة الواقع في داخل مدينة فاس الجديدة (٥) فكانوا يصنعون المشغولات في دكاكينهم ، ثم ينتقلون ببضائعهم لبيعها في الساحة القريبة من سوق العطارين (٦) وكذلك قاموا بتصنيع الأساور والخلائيل والأقراط والأطواق والخواتم الذهبية والفضية (٧) وبذلك اقتصر عليهم بيع بعض السلع منها ما كانت مادته الخام من المعادن مثل " القناديل والأمشاط " (٨) ، وخاصة مماشط الصوف فكان لليهود في فاس وحدها خمسة عشر دكاناً تصنع فيها هذه الأمشاط (٩) .

وقد أدى عملهم بتجارة الذهب والفضة إلى نقص ما يعود على دار السكة من هذه التجارة (١٠) كما اشتغلوا في تجارة الأحجار الكريمة خاصة المرجان المستخرج من شواطئ سبتة ، والياقوت المستخرج من جبل " هزرجه " قرب أغمات وهو ياقوت

-
- (١) الحسن الوزان : مصدر سابق ج ١ ص ٢٤١ ، حاييم زعفراني : مرجع سابق ص ١٥٥
 - (٢) حاييم زعفراني : نفس المرجع ص ١٥٥ . وقد جلب الحرير الخام من مدينة (خميس متغارة) وهي مدينة بناها الأفرقة في ضواحي زواغه على مسافة عشرة أميال إلى الغرب من فاس ، وقد استوطنها أهل غرناطة المهاجرين إلى المغرب ، وأكثروا من زراعة أشجار التوت الأبيض للانتفاع بها في تربية دودة القز . (الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٢)
 - (٣) نقل الصقليون معهم هذه المهنة إلى المغرب فعرفت باسمهم . (حاييم زعفراني : نفس المرجع ص ١٥٣ ، عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب (رسالة ماجستير) ص ١٤٧)
 - (٤) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بني مرين ص ١٣٩
 - (٥) مامول كرفجال: أفريقيا ج ٢ ص ١٥٧ ، نوال على عبد العزيز : علاقات المغرب الأقصى الخارجية في عهد بني وطاس ، رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٩١ ص ١٤١
 - (٦) الحسن الوزان : نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٤
 - (٧) روجيه لوطورنو : مرجع سابق ص ١٣٩
 - (٨) يطلق على هذه الحرفة "القراشليين" بالعبرية. حاييم زعفراني: نفس المرجع السابق ص ١٥٤
 - (٩) مامول كرفجال : أفريقيا ج ٢ ص ١٥٣
 - (١٠) الحكيم : الدوحة المشتبكة ص ٩٥

متناهي في الجودة وحسن اللون^(١) ولكنثرة تواجدهم بالأسواق كثرت الفتاوى التي نحذر من غشهم^(٢) .

وكان ليهود المغرب الأقصى صلاب قوية بينهم وبين يهود مواطني بلاد غير إسلامية جعلتهم يكونون فيما بينهم ما يشبه في عصرنا الحديث أول نظام ائتماني عالمي يسهل فيه عملية انتقال التاجر من بلد إلى آخر ، وتسهيل عمليات التبادل التجاري وتنظيمها^(٣) وقد أدى ذلك لرواج التجارة وازدهارها في الموانئ المغربية المطللة على البحر المتوسط مثل ميناء سبتة وباديس وهما من أهم الموانئ التجارية التي تصدر منها السلع القادمة من مدن المغرب الأقصى^(٤) ، وكان لكل جماعة من الجماعات اليهودية المتمركزة في الموانئ المغربية رسول خاص بها ينهبها بوصول القوافل والسفن القادمة من الخارج ونوع السلع التي تنقلها^(٥) .

كذلك ارتبط اليهود بعلاقات مع الضامنين الذين يقومون بإيواء التجار القادمين على متن هذه السفن وتفرض الرسوم الجمركية على هذه التجارة^(٦) .

وكان للتجار اليهود في المغرب الأقصى دور قوي من التجار النصراني^(٧) فقد وصلوا إلى المدن السودانية فاستطاعوا السيطرة على تجارة الصحراء^(٨) على أن أهم

-
- (١) البكري: المغرب ص ١٥٢-١٥٣ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج ٢ ص ٥٢٩ ، الحميري: الروض المعطاء ص ٣٠٣ ، الحسن الوزان : مصدر سابق ج ١ ص ٢٨٢-٢٨٣ ، ماملو كرفجال : أفريقيا ج ٢ ص ١٥٧ ، رجييه لوطورنو : مرجع سابق ص ٥٤
 - (٢) الوتشريسي : المعيار ج ٦ ص ٦٨ ، مجهول : قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبليدين ، مخطوط ، ورقة ٢ ، أبو عبد الله محمد بن محمد السقطي المالقي : في آداب الحسبه ، تحقيق حسن الزين ، مؤسسة دار الفكر الحديث ، بيروت ١٩٨٧م ص ٨٠-٨١
 - (٣) عطا شحاتة : اليهود في بلاد المغرب الأقصى (رسالة ماجستير) ص ١٥٦
 - (٤) كانت السفن التجارية تأتي كل سنتين مدينة البندقية إلى ميناء باديس لإنزال مختلف أصناف البضائع وشحن بضائع أخرى . (ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، الحميري : الروض المعطار ص ٧٥ ، السبتي: اختصار الأخبار عما بثغر سبتة من سنى الأخبار ص ٤٥)
 - (٥) موريس لومبارد : الاسلام في مجده الأول ص ٣١٣ ، عطا شحاتة : مرجع سابق ص ١٦٧
 - (٦) موريس لومبارد : نفس المرجع ص ٣١٣
 - (٧) عاشور بوشامة : علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس ، هامش ص ٣٥٠
 - (٨) الشيخ الأمين عوض : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان في عهد السلطتين الإسلاميتين مالى وسنغال ، دار المجمع العلمي ، جده ، ١٩٧٩م ، ص ١٦٥ ، عطا شحاتة: مرجع سابق ص ١٦٧

البضائع التي كان لليهود دور كبير فيها هي تجارة الرقيق حيث تخصص فيها اليهود المنتشرين في جميع الأقطار سواء في الأندلس أو في المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي مروراً بمصر وبلاد الشام إلى أن تصل للمغرب الأقصى . ساعدهم على ذلك إجادتهم لعدة لغات^(١) .

- ... النصارى :

فضلا عن النصارى الذين بقوا على دينهم في بلاد المغرب^(٢) فإن الغالب على الجالية المسيحية هم مجموعة من الروم الذين وقَّعوا في الأسر نتيجة للحروب التي خاضها المرابطون والموحدون بالأندلس والتي أسفرت عن الكثير من الأسرى النصارى الذين استخدمهم الموحدون في خدمتهم بالمغرب الأقصى وخاصة في الجيش حتى يمكن الاستفادة من خبراتهم العسكرية في مقاتلة فرنج الأندلس^(٣) حتى صار هؤلاء الروم ، أحد العناصر الرئيسية في جيش الموحدين وقد تردد اسم الروم كأحد الفرق العاملة في الجيش الموحدى خاصة في أثناء الصراع الموحدى المريني ، فقد قتل الأمير " محمد بن عبد الحق المريني " في معركة أبي نياس سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م بحربة احد هؤلاء الروم العاملين في الجيش الموحدى واسمه " جوان غيطان " وكذلك بعد أن تم " لأبى يحيى بن عبد الحق " الاستيلاء على مدينة فاس سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م تمكن قائد جند الروم واسمه " زنار " من قتل المسعود ابن خرباش

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، تحقيق دى خويه ، لندن ، مطبعة بريل ، ١٩٦٧ ، ط ٢ ، ص ١٥٣ ، المغلبي: مصباح الأرواح ص ٤٢ ، الترومانيني: الرق ماضيه وحاضره ص ٨٧

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٤٧م ص ٢٨

(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٣ ، عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر ج ١

ص ٤٠٧ ، حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٧

ص ٣٧٩ - ٣٨٠ . ولم يكن هؤلاء النصارى من جند المرابطين (الروم) أهل ذمة ، فلم تفرض عليهم الجزية باعتبارهم مرتزقة لا يدخلون في أعداد الرعية ، وقد كانوا أحرارا في غالبيتهم ، وهم بذلك يختلفون تماما عن نصارى العجم أو طائفة المعاهدين من نصارى أهل الأندلس أو المستعربين والذين أرغموا على التغريب ، فيقول عنهم ابن عذارى " وقع النظر على تغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم ... فننذ العهد إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدو فنفى منهم في رمضان عدد جم أنكرته الأهواء " . ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، القسم

الموحدى ص ٧٢-٧٣ ، محمود على مكي : وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد

الدراسات الإسلامية بمدريد مج (٧ ، ٨) ١٩٥٩م - ١٩٦٠م ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - ١٦٧)

عامل بني مريـن على فاس بالاستعانة بأربعة آخرين من جند الروم ثم نصب زنـار نفسه حاكماً على المدينة^(١).

وقد ظهر فوز النصارى في الفترة المضطربة بين قوط الوراثة الموحدية وقيام الدولة المرينية ، وهزيمة الجيش المنسحب أمام تلمسان ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وضم إليه عدة فرق من هذا الجيش كان منها فرقة للروم^(٢).

وأول من استعان بالنصارى كان الخليفة الموحدى المأمون ٦٢٤-٦٣٠هـ / ١٢٢٧-١٢٣٢م وانقائه مع ملك قشتاله " فرناند والثالث" سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية من الفرنج تعبر معه إلى بلاد المغرب مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة (Maravedi) من الفضة ، وأن تبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدو على هذا النحو^(٣) وقد أمده ملك قشتاله بأكثر من خمسمائة فارس .

وقد كان في فاس أعداد كبيرة ، حيث ذكر الحسن الوزان من أن هناك عبادات اجتماعية قديمة خلفها النصارى بفاس منها الأعياد التي خلفها المسيحيون ففي ليلة ميلاد المسيح كان أهل فاس يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة ، وكان الأطفال يصنعون أقنعة على وجوههم في أول أيام السنة الجديدة . كذلك كانت توقد النيران في أكوام التبن في كثير من الأحياء يوم القديس يوحنا^(٤).

وقد كان لهؤلاء النصارى دورهم في النشاط الاقتصادي داخل مدينة فاس ، فكان هناك بعض العبيد المسيحيين^(٥) الذين يقومون بالعمل بمستودعات الخشب

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٤١٧ ، ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٩ - ٤١٨ - ٤١٩ ج ٤ ص ٤٧٤ ، الفلقتندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٣٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٧١ ، ١٧٥ ، ابن زرع : الذخيرة السنية ص ٦٦ - ٦٧ - ٧٩ - ٨١ - ٨٢ ، ابن القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس ص ١٠٢

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٧٣ ، الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٢٣
(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٧
(٤) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص ٢٥٨
(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٩

بالمدينة^(١) كما عمل بعض الأسرى المسيحيين في صناعة أدوات حديدية داخل دار الصناعة الموجودة بفاس الجديدة ، تحت أمره مسلمي الأندلس^(٢) .

تنظيمات التجار (جملة - بالمفرق)

• تجار الجملة :

- التجار الأثرياء أصحاب رؤوس الأموال (تجار الجملة) :

كان تجار الجملة في المغرب الأقصى يعملون في نوعين من التجارة : التجارة الخارجية والداخلية ، فقد تكفل تجار الجملة في المغرب الأقصى بمهمة الاشتغال بالتجارة الخارجية فمنهم من يقومون بشراء البضائع بأنفسهم من البلدان المجاورة ونقلها بين البلاد مستفيدين من تباين الأسعار في تنمية رأس المال^(٣) .

وقد انقسم التجار في المغرب الأقصى إلى ثلاث فئات^(٤) هم :

أ- التاجر الخزان : وهو الذي يشتري الأشياء بأسعار منخفضة والترخيص بها لحين ارتفاع سعرها فعليه المبادرة بالبيع عند التنبؤ بانخفاض الأسعار وتجزئة الشراء (أخذ البضاعة في حال كسادها ورخصها) وأن يتأمل أحوال السلطان أكان عادلاً أم جائراً .

ب- التاجر الركاظ : وعليه التبصرة والاحتياط ويستحب له اصطحاب رقعة بأسعار جميع البضائع التي يتعامل بها هذا فضلاً عن معرفته بمقدار المكوس التي تختلف من بلد لآخر .

ج- التاجر المجهز : كالوكيل المجهز بتجهيز البضائع إلى وكيله الذي يقوم ببيعها بنفسه لحساب المجهز، وينبغي أن يكون الوكيل ثقة أميناً ، وهو المتولي للبيع، وله حصة في الربح في كل ما يبيعه أو يشتريه^(٥) .

(١) عمل هؤلاء العبيد من البصارى في مستودعات الخشب الموجودة بالمدينة ، وكان أسيادهم يعطونهم ما يقتاتون به بدلاً من المال ، ولم يكن لهم غير نصف يوم من الراحة يمتد من الظهر حتى المساء من يوم الجمعة إلى جانب ثمانية أيام موزعة على السنة وهي أعياد المسلمين .
(الحسن الوزان : وصف إفريقيا ج ١ ص ٢٤٦ ، مارمول كرفجال : إفريقيا ج ٢ ص ١٥٥)

(٢) مارمول كرفجال : إفريقيا ج ٢ ص ١٥٧

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٣ ص ١٥٥

(٤) أبو الفضل بن الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص ٦٩

(٥) أبو الفضل بن علي الدمشقي : نفس المصدر السابق ص ٧١-٧٥

وربما انتهى الأمر بتجار الجملة بأحدهم إلى إفلاسه أو انقطاع أخباره بعد رحلة إلى بلد بعيد^(١)، ويقوم بعض التجار ببيع بضاعته في بلد آخر ليشترى بضاعة أخرى مختلفة فينقل بعضها إلى بلده ، ويبقى القسم الآخر ليتم بيعه عن طريق وكيله الذي يتركه في ذلك البلد^(٢) ، كما كانوا على اتصال دائم بالتجار الأوربيين^(٣) يتعاون منهم المنتجات الثمينة كالأقمشة رفيعة المستوى التي كان لها رواج في البلاط الموحدى وبين الأسر الغنية في المدن الكبرى بالدولة . وقد بلغت تجارتهم في أوروبا بواسطة عدد من موانئ البحر المتوسط التي كان يقصدها التجار بأنفسهم، أو عن طريق تواجد تجار من جنسيات مختلفة داخل الأسواق كالجنوبيين^(٤) والبيزويين^(٥) والفلورنسيين ، فيذكر التازي أن أن لشركة كوكو وفيتورى من البندقية رجال من فلورنسا كانوا يعملون في بلاد المغرب^(٦) وكذلك الأرجونيين والفرنسيين وغيرهم .

كما كانت بضائع تجار الجملة تصل إلى شمال إفريقيا ومصر عن طريق قوافل الحج وكانت القوافل تحمل منتجات المغرب من أقمشة وجلود وملح إلى بلاد السودان لتعود محملة بالذهب وريش النعام^(٧) .

وقد كان هذا النوع من التجارة سبباً في ثراء الكثير من التجار ممن كانوا يتحملون المخاطر من أجل توفير بعض السلع اعتماداً على اختلاف الأسعار بين البلدين لأسباب يذكر ابن خلدون بعضها بقوله : " ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفق الناس وأكثرهم أموالاً ، لبعدهم طريقهم ومشقته ، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش ... وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق ، لبعدهم الشقة أيضاً^(٨) " .

(١) عبد الحق بن إسماعيل الباديسي : المقصد الشريف والمنزح اللطيف في التعريف بصالحاء الزيف ، تحقيق سعيد أحمد اعراب ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٨٢م ، ص ١٢٩

(٢) الونشريسي : المعيار ج ٩ ص ٧٥-٧٦

(٣) عثمان الكعاك : الحضارة المغربية ، ص ١٥٩ ، عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ، ص ٧٦

(٤) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب قسم الموحدين ص ٣٤٦-٣٤٧ ، النميري : فيض العباب ص ٣٠-٣١

(٥) التازي : التاريخ الدبلوماسي ج ٧ ص ١٧٥-١٧٧

(٦) التازي : نفس المرجع ج ٧ ص ١٧٥

(٧) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ١٦٠

(٨) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ص ٩١٨ - ٩١٩

وقد تحمل بعض التجار مرافقة الحملات العسكرية وما ينجم عنها من أخطار وقد باتت هذه المزاملة من قبل التجار ظاهرة معروفة على الرغم من اتسامها بالخطورة^(١).

كما كان هؤلاء التجار يقومون بدورهم في مجال التجارة الداخلية فيجمعون الصناعات المحلية والسلع الاستهلاكية ثم يبيعونها يوماً بيوم لتجارة التجزئة دينياً^(٢). معتمدين في ربحهم على خزن تلك البضاعة ومن ثم تصريفها فيما بعد كما وجد قسم آخر منهم يستعينون بوكلائهم لتفقد أحوال الأسواق لمعرفة البضاعة النافذة فيطلب من تاجره إرسال تلك البضاعة إليه^(٣). فكان من الطبيعي أن تدر تجارة الجملة هذه على التجار الأرباح الوفيرة التي استثمروها في التجارة إلا أن أكثر استثماراتهم كانت في شراء العقارات والأراضي الصالحة للبناء لتشييد منازلهم الجميلة والحدائق والأراضي الزراعية^(٤).

• تجار التجزئة (المفرق ، بالمقطع):

وقد انقسموا تجار التجزئة الى فئتين :

الفئة الأولى : كانوا يبيعون المنتجات الثمينة كالأقمشة الثمينة ، والأحذية الخاصة بالأعياد^(٥) والحلي والمجوهرات ، والشموع وسائر المنتجات الأخرى ، وكان لهم مكان ثابت بالأسواق والقيساريات كما كانوا يحتلون الشوارع الصغيرة والمختلفة. وكان أهل هذه الفئة أيسر حالاً لأن المنتجات التي كانوا يبيعونها كانت في الغالب منتجات ثمينة وكان أغلب زبائنهم من الأغنياء ، ولذلك فكانت أرباحهم كبيرة وهم يعدون من أفراد الطبقة الوسطى^(٦).

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٣٥٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٩٦

(٢) ابن أبي زرع : نفس المصدر ص ٥٨ ، روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ٥١

(٣) الونشريسي : المعيار المعرب ج ١ ص ٣٧٢

(٤) وتشهد بعض المنازل الجميلة التي شيدها بعضهم ، على أنهم كانوا يجنون أرباحاً ضخمة .

(روجييه لوطورنو : نفس المرجع ص ١٥٩-١٦٠)

(٥) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤

(٦) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مرين ص ١٦١

أما الفئة الثانية : فكانت تتبع سلع الاستهلاك اليومي ، وخاصة المواد الغذائية من الزيت والصابون والزبد والبيض والبقاكة والحنطة والبقول والبصل والشهد وأشباهاها^(١) وكانت هذه الفئة أقل دخلاً من سابقها ، فطبيعة منتجاتهم وتوعية زبائنهم لم تمكنهم من الحصول على أرباح كبيرة ، حيث كان أغلب زبائنهم من أبناء الحي . ولم يكن الفلاحون والمسافرون يشترون من هذه الفئة إلا من كان منهم له حانوت بالقرب من أبواب المدينة . ولذلك يعد تجار التجزئة من هذه الفئة صنفاً من التجار الفقراء يتساوون في مستوى معيشتهم مع الصناع فكان الكثير منهم مضطرين إلى شراء بضائعهم بالدين من تجار الجملة^(٢) .

• التجار الجائلون :

وهم جماعة كبيرة من القادمين حديثاً إلى المدن ، فيهبطون إلى الأسواق ساعين في سبيل الرزق وهرباً من القحط^(٣) فيقومون بحمل بضائعهم والتجول بها في الشوارع والحارات لبيعها ، قد أشار الونشريسي إلى أن بعض الباعة من المسلمين واليهود كانوا يقومون ببيع السلع للنساء في الدور ليس في الأسواق ويذكر أنه عند اشتداد الحر كان بعض النساء يخرجن إليهم سافرات الوجه^(٤) .

• علاقة الدولة بالتجار :

يرتبط التجار بالدولة على حسب قوة الدولة أو ضعفها ، فإن كانت الدولة قوية مستقرة كانت التجارة في استقرار وازدهار ، وان كانت الدولة ضعيفة اضطرب فيها الأمن ، كانت التجارة مضطربة والأسعار في ارتفاع .

ولهذا مرت علاقة التجار بالدولة الموحدية بمرحلتين :

المرحلة الأولى من سنة (٥٤١ - ٦١٠ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٣م) : فقد أشاعت دولة الموحدين الأمن في جميع أرجاء دولتهم خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي^(٥) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٣٢٧

(٢) روجيه لوطورنو : فاس في عصر بن مريم ص ١٦٢

(٣) روجيه لوطورنو : نفس المرجع ص ٥٣

(٤) الونشريسي : المعيار ج ٥ ص ١٩٧

(٥) عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادي ص ٢٧٠

فقد أكد عبد المؤمن بن علي " رسالة العدل " على حماية التجار وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف هذا الأمر^(١).

ومن اهتمام الموحدين بالأمن في دولتهم لم يترددوا في تسيير حملة على قبيلة تعتدي على التجار مثل الذي فعله المنصور والناصر مع عتاة زناتة قرب تلمسان^(٢). كذلك قام خلفاء الموحدين بتعويض التجار عما يفقدونه في كارثة عامة^(٣) وقد رخصت الأسعار ، حيث رفع المكوس (الضرائب) عن التجار ، وفرض عليهم ما تفرضه الشريعة الإسلامية^(٤) ، وكذلك تمهيد الطرق في جميع أنحاء البلاد^(٥).

المرحلة الثانية (٦١٠-٦٦٨ هـ / ١٢١٣-١٢٦٩ م) : اضطربت أحوال الدولة وبدأ الانهيار والضعف وسقوط الدولة^(٦). فقد أثر هذا الوضع على التجار ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً ٦١٦ هـ / ١٢١٨ م ، وكانت الأحوال الاقتصادية تسير من سيء إلى أسوأ^(٧). وانتشرت الفوضى واضطرب الأمن واشتد الخوف في الطرقات ، وكثر الاعتداء على الضعفاء ، وكسدت التجارة...^(٨).

(١) عز الدين احمد موسى : نفس المرجع والصفحة . ابن القطان : نظم الجمان . تحقيق محمود علي مكي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ص ١٦٧ . وقد انزل العقوبات بأصحاب حوادث الاعتداء على التجار أو قطع الطرق التي عرفت ، منفذاً بذلك وعيده ، وسار خلفاؤه على نهجه. (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٦٧-٣٦٨ ، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٦٧ ، المقرئ : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ١٠٧)

(٢) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٦٧
(٣) عز الدين احمد موسى : مرجع سابق ، ص ٢٧١ . في حكم الناصر سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وقع حريق بحى القيسارية بمراكش ، وشبت النار أولاً في حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأنت على الحى كله ... وأمر الناصر في اليوم التالي ، بتتبع السفلة الناهبين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم فقبض على كثيرين منهم وأعدموا على الأثر ، وهلك في تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافترق كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثوراتهم ، وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه. (ابن عذارى المراكشي : البيان ، القسم الموحدى ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥)

(٤) ويصف الإدريسي : ذلك بقوله : " فلما ولى المصامدة (الموحدون) وصار الأمر إليهم قطعوا القبلات بكل وجه وأراحوا منها... " (الإدريسي : نزهة المشتاق ص ٢٣٥ - ٢٣٦)

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمانة ص ٤٤١-٤٤٦ ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٦) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين ج ٥ ص ٣٢٧

(٧) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٣٤١

(٨) ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ٣٥ . فقد ظهرت طلائع بن مرين سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م في أحواز مدينة فاس ، وقد انتزعوا فيما بعد ملك الموحدين . (ابن أبى زرع : الذخيرة السنية ص ١٠) . وقد ضعفت دولة الموحدين في أيام المستنصر ، واعتراها النقص ، وأخذت في الابدان . (ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦١)

القائمة

الخاتمة

تتأول هذا البحث التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين، فتبين لنا أن المغرب الأقصى في عصر الموحدين مر بمرحلتين مختلفتين

المرحلة الأولى (٥٤١هـ/٦٠٩هـ) ، مرحلة القوة السياسية والازدهار الاقتصادي .

المرحلة الثانية (٦١٠هـ/٦٦٨هـ) ، مرحلة الضعف السياسي والانهيار الاقتصادي .

وفي بداية حكم الموحدين شهدت البلاد حالة من الازدهار الاقتصادي والسياسي والعسكري ، والاجتماعي ، والالتزام بما تفرضه الشريعة الإسلامية .

فقد سار خلفاء الموحدين على نهج عبد المؤمن بن علي الخليفة المؤسس الذي اهتم بمراكش عاصمة المرابطين التي دخلها سنة ٥٤١هـ/١١٤٥م ، وجعلها عاصمة دولة الموحدين ، وغرس البساتين حول مراكش ، وجلب لها الماء من أغمات وحفر الآبار والعيون ، وعظم إنتاج البساتين من الفواكه ومسح (حصر) جميع أراضي المغرب من برقة حتى المحيط الأطلسي ، وحصل من الولاية على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثرواتها وغلاتها وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الخراج على الأرض ، واسقط الثلث مقابل ما لا يصلح للزراعة (اتساع الدولة مهد لها موارد اقتصادية هائلة) . ولقد أشاع الأمن في جميع أرجاء دولته ، واهتم بالتجارة الداخلية فعمل على حماية التجار ، وتأمين طرق التجارة متوعداً بقتل من يخالف الأمر .

ومن أهم أعماله للتجارة قطع جميع المغارم والقبالات والمكوس التي فرضها المرابطون في آخر دولتهم ، وكانت تجبي الأموال خراجها دون مكس ولا جور فكثر الأموال وازداد الأمن في الطرقات في عهد الخليفة الثاني يوسف بن عبد المؤمن .

وهكذا ازدهرت أحوال البلاد في التجارة والسياسة وفي سنى المجالات في عهد الموحدين لانتشار الأمن وعدم فرض ضرائب أو مكوس أو مغارم أو قبالات. ففي عهد الخليفة المنصور وصلت الدولة الموحدية إلى نروة عظمتها ومجدها " فتسير الظعينة من برقة إلى بلاد السوس لا تخشى شيء" ، وزاد في وزن العملة الموحدية

فأصبحت أربعة جرائمات وسبعين في المائة من الجرام ، بعد أن كانت سابقاً لا تتعدى جرامين وخمسة وثلاثين في المائة من الجرام . ومحاسبة أمناء الأسواق وشيوخ الحضرة مرتين في الشهر . وانتصاره على ملك قشتالة في معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م انتصاراً ساحقاً زاد من هيبة الدولة بين نصارى اسبانيا . وظلت الدولة في قوة وازدهار ، وربطت مدن المغرب الأقصى شبكة من الطرق البرية . فقد اهتموا بتسهيل مركز النقل فعبدوا الطرق وسهلوا حركة المرور وتأمينها داخل الأسواق وخارج المدن . وتوفرت وسائل نقل تناسب حجم المبادلات التجارية سواء لاستخدامها داخل المدينة أو لنقل البضائع لعموم بلاد المغرب الأقصى والبلاد المحيطة ، واستخدموا النقل البري والنهري والبحري في انتقال السلع بين بلاد المغرب أو الأندلس أو بلاد السودان أو بين بلاد المشرق .

ومن أهم المراكز التجارية في المغرب الأقصى بعد مراكش قاعدت الدولة مدينة فاس منذ نشأتها في عهد الادارسة ، تأتي سبتة وطنجة وسجلماسة وأغمات وهذه المدن تأتي أهميتها لأنها موانئ بحرية أو صحراوية في طريق بلاد السودان فهي على طرق التجارة في المغرب الأقصى .

واهتمت دولة الموحدين بالأسواق في مدن المغرب الأقصى حيث يتم في السوق البيع والشراء فامتلأت الأسواق بشتى أنواع المتاجر التي تأتي بها القوافل القادمة من بلاد السودان ومدن المغرب لبلاد المغرب الأقصى . وتتوعدت الأسواق بين اليومية أو الدائمة التي تختص بمكان معين تبعاً لأنواع السلع ، وكان تنظيمها يخضع لشروط كثيرة ، وعلى هذا الأساس يجد المرء بعض الصناعات داخل المدينة والقسم الآخر خارجها لاحتياج بعض الحرف إلى المياه لتصريف بقايا العمل فيها . وأسواق الجملة ومركزهم بجوار أبواب المدن ، ونجد هذا التصنيف في المدن الكبرى وخاصة في مراكش وفاس ، التي اقتصت أيضاً بأسواق متخصصة يطلق عليها قيسارية تنشئ في المدن الكبرى . وتعتبر القيسارية مدينة تجارية صغيرة فكانت تحتوى على شتى منتجات الأسواق مجتمعة معاً ، وهي مقصد لكبار التجار . ولم تكن القيسارية تتكون من حوانيت فحسب ، إذ كانت تقوم إلى جانبيها مخازن ، حيث كان تجار الجملة يخزنون بضائعهم قبل بيعها إلى تجار التجزئة ، وكانت القيسارية تضم في داخلها أسواقاً مختلفة . وكان يوجد أسواق أسبوعية أو دورية التي تقام في أيام معينة من

الأسبوع ، وهناك الأسواق الموسمية التي تقام في المناسبات . وهناك أسواق تتخصص في سلعة محددة مثل سوق الشماعين والعطارين والكتبيين في فاس
وقم اهتم الموحدون بالأسواق فعينوا الأمناء أو المحتسب وهو المسئول عن إدارة السوق وكان له مركزه المرموق بين الموظفين المدنيين ويطلق عليه صاحب السوق أو صاحب الحسبة أو الأمين فكان من مهام المحتسب مراقبة التجار والعمل على نظافة الأسواق والالتزام بتطبيق الآداب العامة فيها ومحاسبة العاملين في الأسواق ، ولكن كان التجار يبتكرون حيلاً جديدة أ حالت دون تطبيق الحسبة على الأسواق تطبيقاً محكماً .

وقد أشرنا لدور العاملين في الأسواق في المساهمة في ازدهار الحركة التجارية في المغرب الأقصى وخاصة السماسرة والدلالون والجلاسون والحمالون والموثقون والسقاة وغيرهم من العاملين في الأسواق ، فهم الفريق الذي ينظم العلاقة بين البائع والمشتري في الأسواق .

وأشرنا لدور الفنادق في الحركة التجارية لإيواء التجار الغرباء .

ولم تكن التجارة تقوم على العملة (الدينار والدرهم) فقط بل كان التجار يستخدموا وسائل أخرى في المعاملات مثل السفاتج والصكوك والحوالات .

ولم تفرض الضرائب إلا في مرحلة الضعف فقد فرضت الضرائب على الأراضي وعلى التجار وعلى الحرف في نهاية حكم دولة الموحدين .

أما عن عناصر التجار من سكان المغرب الأقصى فكانوا من البربر والعرب والأندلسيين والسودانيين وأهل الزمة (اليهود والنصارى) .

كما ثبت من الدراسة الدور الكبير الذي لعبه التجار اليهود واستثناهم بالعديد من الحرف والصناعات وتحكمهم في الصرافة والتجارة الخارجية . وتنظيمات التجار سواء تجار الجملة أو تجار التجزئة (المفروق - المقطع) أو الباعة الجائلين .

وعن علاقة الدولة بالتجار فقد ظهر واضحاً حيث خصصت الأمناء لمراقبة التجار ومعاقبة المخالفين وتأمين التجار في الطرق وكذلك فرض الزكاة أو فرض ضرائب عند احتياج الدولة للمال ، فعندما تكون الدولة قوية تكون التجارة والحركة

التجارية نشطة والحالة الاقتصادية مزدهرة . أما في حالة ضعف الدولة فالحالة التجارية تتدهور وتفرض الضرائب ويضطرب الأمن ويتدهور اقتصاد الدولة .

وفي عهد الخليفة الناصر محمد بن المنصور استطاع أن يقضي على ثورة بني غانية ، ولكن في عهده هزم في معركة العقاب من ملك قشتالة سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م ، فيعتبر هذا التاريخ هو بداية النهاية لدولة الموحدين ، حيث استمرت الدولة الموحدية تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ، ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة ، إذ بدأت عوامل الانهيار والتفكك تنتاب الدولة ، وتظهر دويلات في بلاد المغرب (بني عبد الواد في التلمسان ، وبني حفص في تونس) ، ثم سقوط الأندلس في يد النصارى الأسبان ، وفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م تسقط على يد بني مرين .

وأرجو أن يكون ما توصلت إليه من نتائج في هذه الدراسة أسهماً متواضعاً في أبرز خصائص تلك الفترة تجارياً واقتصادياً ، عن التجارة الداخلية في المغرب الأقصى ، إضافة علمية جديدة في طريق المعرفة التاريخية .

والله الموفق